

# **الحوار والحروب ومنطق القوة**

**مقارنة بين الإسلام والحضارة الأوروبية**

**إعداد الدكتور**

**عبد الحليم عويس**

أبيض

## التسامح والرحمة في الإسلام :

في أسلوب حصر بلاغي يحدد الإسلام - في كتابه الكريم - وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه رحمة لكل العالمين.

لقد خاطب الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

فإن على المسلمين - مهما كانت أجناسهم أو أوطانهم - ان يتنبهوا إلى أنهم حملة راية العدل والرحمة بعد أستاذهم ومعلمهم محمد صلى الله عليه وسلم، وعليهم أن يتنبهوا إلى أن الأمانة التي ائتمنهم الله عليها، وهي (البلاغ للناس بالقرآن) إنما هي نور للناس جميعاً إذا آمنوا بها، لا فرق بين أسود وأبيض... يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٠﴾ [المائدة].

ويستنتج من هذا أن المسلمين مسئولون عن إنقاذ البشرية جميعها، فحتى لو تأججت الأحقاد والعنصريات في صدور أعدائنا، فالمسلمون لم يبعثهم الله ليواجهوا حقد بحقد، ولا عنصرية بعنصرية، بل عليهم أن يحافظوا على راية العدل والتسامح والرحمة مع الإنسانية، وألا يخضعوا لاستفزات أعدائهم التي يرمون من خلالها إلى زحزحتهم عن مبادئهم.

ولعله من أكبر آيات التسامح الإسلامي والشعور والمسئولية الإنسانية أن العلماء والدعاة المسلمين عندما يعرضون لقضايا الخلل الإنساني لا يصدرن عن شعور عنصري يحصر علاجهم في المحيط الإسلامي أو القومي، بل يعملون على حل مشكلات حضارات العصر الحديث كلها، دون أن يحضروا حل المشكلات في الدائرة الإسلامية أو العربية أو التركية وحدها، إنما يعرضونها ليحلوا بها مشكلات الحضارة المادية الحديثة كلها... تلك الحضارة التي حبسها (العقل) في إطار (المادة) و(المنفعة) و(النسبي)، وأصبحت عاجزة عن إدراك الكمال والجمال في الروح والمطلق والغيب

وضرورة الإيمان بالكينونة الإنسانية والعمل المشترك على استمرار التحضر  
الإنساني العام...الذي يضم المسلمين وغير المسلمين.  
ولقد أدرك المسلمون أن هناك خلافاً وقع في المسيرة الإنسانية نتيجة  
التحيز للمادة على حساب الروح أو العكس.

ولقد أصاب هذا العجز الحضارة الإنسانية بالشلل النصفي، لأن الروح  
أو الغيب أو المطلق لا تتفصل عن العقل و المادة والنسبي.... ولأن (المطلق)  
هو (المعيار) الأساسي للحق، ورفض التعامل معه يعني رفض السير في  
طريق الحق، تحت ضغط الإيمان المشلول بالمادة والنسبي. وهو الممر المؤدي  
إلى عبادة الإنسان لنفسه بديلاً عن عبادة الله الذي يؤمن المسلمون بأنه  
وضع للكون والإنسان نظاماً من خلال الوحي والأنبياء. وهو نظام متطابق مع  
فطرة الإنسان.

لقد كان الإسلام - لأنه دين الفطرة والحق - حافظاً على تشكيل كيان  
متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفت في  
عضده على مر العصور...فإن كل شيء في الإسلام يشكل وحدة، ويعبر في  
الوقت نفسه عن وحدة، وفروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة  
مادية عن التماسك والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات  
يومية في ساعات متماثلة تقريبا، وفي اتجاه واحد نحو مكة.  
وتعبر النية الدينية المصاحبة للعبادات لكل شعيرة عن وحدة الإنسان  
روحياً ومادياً.

ويسهم الإيمان - أيضاً - كما تسهم الشعائر في تضامن الجماعة  
الإسلامية وتجانسها، وتدفعها جميعاً نحو تحقيق عالميتها.  
إن جماعة المؤمنين، وقد قامت على الدين، فإنها نجحت في الصمود  
أمام التفكك السياسي، كما أن الروابط الدينية التي تسمو فوق التخوم  
والحدود بين الدول، لم تتأثر كثيراً بذلك التفكك السياسي<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد عبد الوهاب - الحضارة الإسلامية وجهتها الله والحضارة الغربية مركزها الإنسان، ص٦٢، الناشر  
دار الصحافة، القاهرة ١٩٩٩م (نقلا عن مارسيل بوزار في كتابه إنسانية الإسلام).

ويقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه الله إلى الإسلام (روجيه دي باسكيه): لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع. وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حالياً، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة، إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة محمداً بالضبط وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله<sup>(١)</sup>.

إن الفكر الحديث (كما يتابع باسكيه حديثه) على العكس من ذلك، إذ ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يحدث في حضارة أخرى غير هذه الحضارة الأوربية والمادية ما حدث من تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت. ذلك هو التناقض الذي وقعت فيه هذه الحضارة التي ارتأت منذ نشأتها أن تكون إنسانية، بمعنى أنها جعلت من الإنسان مصدر كل شيء ونهايته، إن هذه الحضارة التي أريد لها أن تكون إنسانية، إنما تقود في الوقت نفسه إلى نظام يحتقر الإنسان، ويخدعه، ثم يدمره في نهاية المطاف. إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافق قوي بين الإنسان والكون المحيط به، وكذلك بين الإنسان والله خالق كل شيء ومبدعه. إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة<sup>(٢)</sup>.

#### الحوار... والاعتراف بالآخر وحقوقه في الإسلام:

إن القرآن الكريم والسنة الشريفة - وهما وحي الله سبحانه إلى خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم - حافظان بالنصوص الكريمة التي تحدد علاقة المسلم بالآخرين من غير المسلمين، سواء كانوا

(١) نقلاً عن المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤، ٦٥.

يعيشون في داخل المجتمعات الإسلامية - كمواطنين غير مسلمين - أم كانوا خارج المجتمعات الإسلامية، لكنهم يرتبطون بالمسلمين بعلاقة سلام - عهد أمان دولي أو ثنائي - أو حتى بعلاقة حرب ومواجهة مباشرة؟.. أجل:

ماذا يقول الإسلام - من خلال مصدرية الأصليين - في هذه القضية التي تشغل بال الإنسانية الآن، ويريد بعضهم أن يجعل الصدام الحضاري (أو الشذوذ) القاعدة، بينما يجعل (قاعدة الحوار والتفاعل الحضاريين) هي الشذوذ والاستثناء!!؟

إن الإسلام يرفض قلب الأوضاع على هذا النحو، وهو يجعل من التعايش السلمي قاعدة الحياة الإنسانية، مع الإيمان الكامل بفطرية الاختلاف وتنوع العقائد ،بل ضرورة هذا الاختلاف الإيجابي لاستمرار الحياة وازدهارها إذا ما التزم الناس بضوابط الاختلاف والتنوع وآدابهما، وبالتالي أصبحا سبيل تكامل وثراء وازدهار، وليس سبيل تصادم وقهر وانتحار.

ونحن نلاحظ - في البداية - أن القرآن الكريم يتحدث عن نفسه، على أنه (الحق) الذي جاء مصدقا (للحق) الموجود في الكتب السماوية الصحيحة السابقة، فهو آخر حلقاتها، وهو المحقق لرسالتها... يقول الله في كتابه الكريم عن اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

ويقول أيضا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠١].

ويقول - أيضا في خطابه لرسول الله - عليه الصلاة والسلام: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ٢ ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ٣ ﴿مَنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ٤ ﴿[آل عمران].

وفي الموقف الإسلامي الكريم من توراة موسى - عليه السلام - التي

أنزلها الله على عبده موسى، والتي قرأها على بني إسرائيل في حياته، وحكم بها هو وأخوه هارون فيهم، ثم تركها بينهم وانتقل إلى الرفيق الأعلى. يقول الله في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد امتدح الله توراة موسى في القرآن، وبين أنها كانت تدعو إلى التوحيد الخالص والإحسان إلى الوالدين والآخرين واليتامى والمساكين، ومخاطبة الناس - غير الإسرائيليين - بالحسنى وعدم المكر والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

لكن هذه التوراة التي يمدحها الله في القرآن ليست هي التوراة التي عبثت بها أهواء اليهود، والتي يقول الله فيها: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ - ٧٩]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وقال - عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

فالتوراة التي أنزلها الله على موسى والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى - جزء من إيمان المسلمين بالوحي السماوي - ولا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بوحي الله وكتبه التي سبقت القرآن، وقد ورد ذلك إجمالاً في

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقد بين الله سبحانه في القرآن الكريم أن المسلمين هم - وحدهم - على ظهر الأرض الذين يؤمنون بكل كتب الله المنزلة.. قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أما محمد نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فهو - أيضا - الحلقة الأخيرة في سلسلة واحدة مباركة هي (سلسلة الأنبياء) التي تشبه العقد الواحد، والبيت الواحد، بل إن (محمدًا رسول الإسلام) يبين بأسلوب رائع نادر في التواضع الشعور بالتقدير والإجلال لكل الأنبياء السابقين - إنه عليه السلام «لبنة» في بناء «النبوة» الكبير... يقول: «إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا إلا موضع لبنة فيه، فكان الناس يمرون بالبيت ويقولون: لولا هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم النبيين». رواه مسلم.

وهذا الحديث الشريف - في الحقيقة - لم يكن إلا ترجمة نبوية كريمة للتوجيهات الإلهية الواردة في القرآن، والتي توصل وتؤكد عقيدة أن الأديان السماوية جميعا إنما جاءت لتبين مكانة الإنسان في الكون، من خلال تعليم الإنسان، وتعريفه بمصدر الكون، خالق الكون، وبمصير الكون والإنسان، وبالتالي فإن كل الأديان تقدم - مهما اختلفت في بعض الشرائع والفروع - نظاما كاملا للعقيدة والعبادة يعكس (الموقف الديني) الذي يجب أن يتبناه الإنسان في تعامله مع الحياة والكون.. ولهذا المعنى المتكامل لم يكن بدعا أن يركز القرآن على عقيدة أن رسل الله جميعا يعزز بعضهم بعضا. ويتضامنون في تبليغ حقيقة واحدة، وأن الأنبياء أمة واحدة تحت لواء الله الواحد، وأن هذه الوحدة كانت تجمع الناس فيما مضى، وإنما الأجيال اللاحقة هي التي بذرت الخلاف والفرقة<sup>(١)</sup>... قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

(١) محمد عبد الله دراز: مختصر مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٢٥. طبع مصر.



مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿البقرة: ٢١٣﴾ .

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] .

ويقول سبحانه وتعالى عند عرضه لقصص عدد من الأخوة الأنبياء في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] . وفي سورة المؤمنون يأتي المعنى نفسه تقريبا: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] .

ومع هذا كله، فإنه لم تظهر في نصوص الوحي الكريم - قرآنا أو سنة نبوية - أية إشارة إلى عدم الاعتراف بالآخرين، أو أية إشارة إلى السماح بإكراههم، أو عدم معاملتهم بالحسنى، أو بكل الحقوق الإنسانية، التي هي حق لكل إنسان.. بل إن الإسلام يأمر المسلمين بإتباع الأوامر التالية التي وردت في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ . إلى نهاية السورة التي تقول للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .. الكافرون في الحوار يقول القرآن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] .

ومن المعروف أنه من المقومات الأساسية التي يتميز بها المسلمون على غيرهم أن الإيمان في الإسلام لا يكتمل بل لا يعتد به إلا إذا كان إيمانا بالأنبياء جميعا وبالكتب السماوية الصحيحة كلها، أما غيرهم فيؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، وبالتالي يؤمنون ببعض الكتاب (الوحي) ويكفرون ببعض، وقد سماه القرآن كتابا على أساس أن الكتب السماوية

كتاب واحد تتغير طبعته وبعض قضاياها لتتلاءم مع التطور البشري في الوعي والتحديات الخارجية!!!..

كما يتميز إيمان المسلمين بأنه يعترف - بل يوجب على إتباعه - حماية المتدينين ورؤساء الأديان من غير المسلمين، وعلى حين تتكر كل الأديان غيرها، فإن الإسلام يبحث عن (الحكمة) ويبحث عن الأختيار في كل دين من الذين يؤمنون بالوحي كله والأنبياء جميعا حتى ولو أضمروا دينهم ولم يظهره: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]. إلى أن يقول فيهم: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

#### الطبيعة الإنسانية الدولية للمبادئ الإسلامية:

الله عز وجل في الإسلام رب العالمين، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم آخر حلقات سلسلة النبوة، وقد أرسله الله رحمة للعالمين. وتعاليم الإسلام - عقيدة وشريعة وأخلاقا - ذات بنية إنسانية عالمية.. وبإنجاز يمكن الإشارة إلى الطبيعة الدولية في الإسلام من خلال الخصائص والسمات الإسلامية التالية:

#### ١- عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها:

لما كانت دعوة الإسلام عالمية لم تأت منذ البداية لمخاطبة بلد بعينه، أو قوم بعينهم، فإنها كانت خطوة إنسانية تقدمية إلى الأمام نحو تحقيق ما بذلت المحاولات البشرية لتحقيقه من بعد ، وهو تدويل المجتمع الإنساني بيد أن الدعوة الإسلامية - مع دعوتها للعالمية والتدويل - لم تسمح بالقضاء على الخصوصيات ، أو مصادرة حقوق الحضارات الأخرى في التعبير عن نفسها.

#### ٢- الأخوة الإنسانية:

ويكفي لإيضاح هذه الأخوة من نصوص القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٣- خلق الناس جميعا من نفس واحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

٤- الإنسانية في الإسلام جماعة واحدة:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩].

٥- اختلاف اللون واللسان آية ربانية لا تفرقة عنصرية:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

٦- العمل الصالح ميزان التفاضل بين المجتمع:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

شهادة عالمية بحقوق الإنسان في الإسلام:

في صفر ١٣٩٢ هـ (مارس ١٩٧٢م) عقدت في الرياض، ثم في باريس والفايتيكان ومجلس الكنائس العالمي في جنيف والمجلس الأوروبي ستراسبورغ ندوات علمية بين فريق رسمي من كبار رجال الفقه في المملكة العربية السعودية، وفريق من كبار ورجال الفكر والقانون في أوروبا .. وقد انتهت الندوات باعتراف صريح من الفريق الأوروبي بسمو حقوق الإنسان في الإسلام وسبقها على كل القوانين المعاصرة وشمولها، وقد انتهت الندوة بمذكرة رسمية قدمت للمؤتمرين، كما قدم مضمونها قبل ذلك لقسم حقوق الإنسان بالأمم المتحدة في يونيو ١٩٧٠ م مشفوعا بملاحظات حكومة المملكة العربية السعودية على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وحقوق الإنسان الأساسية في الإسلام . كما أجملتها المذكرة تتلخص في

الحقوق التالية:

- ١- «كرامة الإنسان» عملاً بنص القرآن الكريم الذي قد جاء فهي ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].
- ٢- عدم التمييز في الكرامة وفي الحقوق الأساسية ما بين إنسان وآخر، بسبب العرق والجنس أو النسب ، أو المال ، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [الحجرات: ١٣].
- ٣- «النداء بوحدة الأسرة الإنسانية والإعلان بأن خير بني الإنسان عند الله هو أكثرهم نفعا لهذه الأسرة» عملاً بقول رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».
- ٤- «الدعوة إلى التعاون بين الشعوب على ما فيه الخير وتقديم أنواع البر إلى جميع بني الإنسان دون النظر إلى جنسيتهم أو دينهم ، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].
- ٥- «حرية الإنسان في عقيدته وعدم جواز ممارسة الإكراه فيها» عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].
- ٦- «حرمة العدوان على مال الإنسان ودمه»، عملاً بقول رسول الإسلام: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام» (في خطبة الوداع).
- ٧- «حصانة البيت لحماية حرية الإنسان» عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٢٧].
- ٨- التكافل فيما بين أبناء المجتمع والاعتراف بحق كل إنسان في الحياة الكريمة والتحرر من الحاجة والفقر، بفرض حق معلوم في أموال القادرين ليصرف لذوي الحاجة على اختلاف حاجاتهم عاملاً بما جاء في القرآن الكريم، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج].
- ٩- «إيجاب العلم على كل مسلم» من أجل القضاء على الجهل عملاً بقول رسول الإسلام : «طلب العلم فريضة على كل مسلم».
- ١٠- «إمكان فرض العقوبة على الممتنعين عن واجب التعلم والتعليم»،

وهذا ما لم تصل إليه حقوق الإنسان في أية دولة حتى اليوم ، وذلك نتيجة لفرض التعليم على كل مسلم .

١١- «فرض الحجر الصحي» في حالات الأمراض المعدية . ومنذ أربعة عشر قرنا وقبل أن تنتبه أية دولة حينذاك لإدخاله في تشريعها . وذلك مبالغة من الإسهام في حماية الصحة العامة من المرض، إلى جانب حماية المجتمع من الفقر والجهل .

١٢- وهناك كثير من النصوص التشريعية الإسلامية التي لا تحصى لحماية هذه الحقوق التي أشرنا إليها أعلاه . وهي في مجملها تشرح (حقوق الإنسان) الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من مستوى آفاقها الإنسانية العليا التي لا تميز . ولا تسمح أن يميز فيها . ما بين إنسان وآخر . وخاصة بسبب الأمور التي نص عليها (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) وهي: «الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي أو الأصل الوطني والاجتماعي أو الثروة أو البلاد» .

١٣- أعلن الإسلام أن النساء شقائق الرجال، وان لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الحقوق إلا ما جعل للرجال من حق في رئاسة الأسرة وتحمل مسئوليتها ، لما بنى عليه تكوين الرجال من خصائص تجعلهم في الأصل أرجح في حمل هذه المسئولية الاجتماعية الثقيلة .

### **بين الطبيعة الإنسانية الإسلامية والطبيعة الصهيونية والصليبية:**

إذا كنا قد أشرنا إلى الحقوق الإنسانية في الإسلام . كما رأينا . فإننا نعجب في المقابل من الحقوق الإنسانية في اليهودية كما يصورها العهد القديم والتلمود والبروتوكولات!!..

والأعجب من ذلك تأثر الحضارة الأوربية بهذه القيم اليهودية، فالحقوق الإنسانية لغير اليهود لا وجود لها، والحروب التي تخضع في الإسلام لآداب صارمة تتلخص في أوامر الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق لقائه (يزيد ابن أبي سفيان) التي ألمعنا إليها سلفا، والتي لم نذكر منها إلا ما

يتصل بحماية الرهبان ورجال الدين في أماكن عبادتهم، وتركنا أوامر عشرة أخرى أمر بها أبو بكر الصديق، وهي أمره لقائده ولقاداته جميعا: [لا تقتلوا امرأة، ولا صبيا، ولا بغيرا إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلا، ولا تفرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن].. هذه الوصايا - الأوامر - لا وجود لها ولا لقريب منها، ولا لروحها، في العهد القديم، بل تجد نفسك أمام حروب إبادة لعلها هي التي فرضت روحها على حروب الإبادة العنصرية والدينية المعاصرة.

إن التوراة المعدلة (المحرفة) التي بأيدي اليهود تحث اليهود على إعلان حرب عالمية دائمة مستمرة - مباشرة وغير مباشرة - ضد البشرية.. ومما ورد في هذا التوراة - مما يعكس نظرة اليهود للحرب - قول التوراة لليهود: «إن الأرض التي تدخلون لتملكوها في أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضي برجاستهم ، التي ملأوها من جهة إلى جهة بنجاستهم ، والآن فلا تعطوا بناتكم لبنينهم، ولا تأخذوا بناتهم لبنينكم، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض ، وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد»<sup>(١)</sup>. وقلها أيضا لهم:

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرده شعوبا كثيرة من أمامك... لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك»<sup>(٢)</sup>. وكان من نتائج تمسك اليهود بهذه التعليمات الدينية أن وضعوا قوانينهم ونظمهم ومعاملاتهم ونظرتهم السياسية على التفرقة بينهم وبين سائر البشر في كل شئ ، كما عمدوا إلى تاريخ بني آدم يشوهونه ويلوثه ويبرؤون أنفسهم من العيوب والنقائص، وأعطوا لأنفسهم حق استعباد الآخرين وابدانهم.

وقد حددت التوراة صور الإبادة الجماعية في الحرب في ثلاث صور هي:  
١- إبادة المدن المرتدة التي يتأكد اليهود أنها تعبد آلهة أخرى لم يعرفها اليهود:  
فقد ورد في سفر التثنية الأمر بإبادتها «فضربا تضربُ سكان تلك

(١) سفر عزرا، الإصحاح (٩/١١-١٣).

(٢) سفر التثنية، الإصحاح (٧/١-١٢، ١٤).

المدينة حد السيف، وتحرمها (تذبحها) بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تبني بعد، ولا يلتصق بيدك شيء من المحرّم ، لكي يرجع الرب من حمو غضبه ويعطيك رحمة ، يرحمك ويكثر كما حلف لأبائك(١).

### ٢- إبادة المدن المحاربة التي لم تسلم نفسها:

فقد جاء في سفر التثنية أن المدن التي لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف...هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا(٢) ..

### ٣- إبادة مدن معينة حددها الله في التوراة وتستحق الإبادة:

وقد حددها سفر التثنية في قوله: «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوبا كثيرة من امامك، الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والقرزيين والحويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر، وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم ، لا تقطع لهم عهد، ولا ترفق بهم، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم، فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدا آلهة أخرى، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا، ولكن هذا ما تفعلونه بهم، اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريتهم وأحرقوا تماثيلهم(٣).

إن النبي يشوع الذي جاء بعد موسى (عليهما السلام) تصوره التوراة وكأنه سفاح لا نبي، فعندما يدخل مدينة أريحا يأمر بقتل كل الناس إلا الزانية التي سترت جواسيسه في بيتها، ثم يأمر بإحراق المدينة....

(١) سفر يشوع، الإصحاح (٢٨-١/٨) في ذلك كذلك، الإصحاح (٤٣-١٦/١٠)، (٢٤-١/١٢)، وسفر القضاة، الإصحاح (١٨-٣/١)، والإصحاح (٦-٤/٨)، وسفر صموئيل الثاني، الإصحاح (٣١-٢٩/١٢)، وأخبار الأيام الثاني، الإصحاح (١٢، ١١/٢٥).  
(٢) سفر التثنية: الإصحاح العشرون.  
(٣) سفر التثنية: الإصحاح (٧-١/٧).

ويقول العهد القديم عن يشوع وجيشه:

«وحرّموا (أي أبادوا) كل ما في المدينة من رجل، امرأة، طفل وشيخ، وحتى البقر والغنم والحمير بحد السيف [أي قتلوا الجميع].»

يقول العهد القديم أيضا: إن يشوع أصدر أمره قائلاً:

«وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد. اجعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع (أي استثنى وعفا) راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما بها وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم؛ لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما شيوخ لكي يتجسسا أريحا»<sup>(١)</sup>... (فالخاتمة الزانية - وحدها - هي التي استحقت الحياة، مكافأة على خيانتها)!!

وفي صورة دموية أخرى يقول العهد القديم مصورا الهجوم على مدينة (عاي):

«فقال الرب ليشوع: لا تخف، ولا ترعب، خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاي.»

انظر قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. فتفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها، غير أن غنيمتها وبهائمها تهبونها لنفوسكم...»<sup>(٢)</sup> فهنا في (عاي) استثيت الحيوانات التي لم تستثن في أريحا [وربما تكون لحيوانات أريحا ذنوب لا نعلمها...!!] وضربهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت، وأما ملك عاي فأمسكوه حيا وتقدموا به إلى يشوع، وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا، إن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا جميع أهل عاي... ويشوع لم يرد يده التي مدها

(١) سفر يشوع: الإصحاح السادس.

(٢) سفر يشوع: الإصحاح الثامن.



بالمزراق حتى حرم (أي أباد) سكان عاي، لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبا إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع. واحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبديا خرابا إلى هذا اليوم، وملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء ، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته من على الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة ، وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم<sup>(١)</sup>.

وفي الإصحاح العشر من سفر يشوع، نجد سلسلة من هذه الإبادات الجماعية تقول التوراة:

(وأخذ يشوع «مقيدة» في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرّم «قتل» ملكها وكل نفس بها لم يبق شاردة، وفعل بملك «مقيدة» كما فعل بملك «أريحا»، ثم، اجتاز يشوع مقيدة وكل إسرائيل معه إلى «لينة» فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها لم يبق شاردة وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لينة إلى لحنيش، ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلينة...

«ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لحنيش على عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف وحرّم عليها كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلحنيش، ثم صعد إلى حبرون «الخليل»، أخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها كل منها وكل نفس بها، لم يبق شاردة حسب كل ما فعل بعجلون فحرّمها وكل نفس بها، ضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل سلوكها لم يبق شاردة، بل حرم وقتل كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل فضربهم يشوع من قادم بريئع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جعبون»<sup>(٢)</sup>..

إنها حرب إبادة لا تبقى ولا تذر...!!

(١) سفر يشوع: الإصحاح الثامن.

(٢) سفر يشوع: الإصحاح العاشر.

وفي الأسفار الخمسة الأولى المجمع على أنها من التوراة عند السامريين والعبرانيين معا، نجد الاتجاه الدموي مسيطرا بحيث يمكننا القول: إن ظاهرة العنف تدخل في صميم نسيج التوراة وفي كل أسفارها بدرجات متفاوتة ففي سفر التكوين أول أسفار التوراة - يرد مايلي:

«ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل»<sup>(١)</sup>... وإما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريما»<sup>(٢)</sup>. (أي تبيدها تماما).

والسؤال الذي نتوجه به هنا: ما ذنب الأطفال والنساء وغير المحاربين في هذه الإبادة الجماعية؟

لكن الإجابة على هذا التساؤل تأتي من التوراة نفسها. تورا ما بعد السبي البابلي وحزقيال ونحميما وعزرا... إن هذه التوراة أباحت إبادة كل حي، وقطع كل شجر أخضر، وحرق كل ما يمكن الانتفاع به، بل جعلتها فرائض وأحكاما وقوانين..

وقد ورد في سفر التثنية: (هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال ، وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم ، وتكسرون أنصابهم ، وتحرقون سواربيهم بالنار و تقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان ، لا تفعلوها هذا للرب إلهكم، بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون ، والى هناك تأتون وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ووقائع أيديكم وندوركهم ونوافلكم ، وأبكار بقركم وغنمكم، وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم

(١) التكوين: الإصحاح السابع والعشرون.

(٢) سفر التثنية: الإصحاح العشرون.

أنتم وبيوتكم كما بارككم الرب إلهكم»<sup>(١)</sup>.

أجل : هكذا يفرح اليهود على أشلاء الناس وبقاياهم وجماعهم!!!  
وتعيقا على هذه الإبادة الجماعية يعترف أحد أصحاب الضمائر من  
اليهود على بني جنسه قائلاً:  
نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ومحركي الفتن فيه  
وجلاديه<sup>(٢)</sup>.

والدكتور (ليفي) لم يقل هذا اعتمادا على ما جاء في العهد القديم  
فقط، بل اعتمادا على وقائع التاريخ كله، وعلى وقائع تاريخ اليهود في  
فلسطين من سنة ١٩٤٧ على مصر - وما قبلها - حتى اليوم.  
وفي العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، حيث كانوا مضرب الأمثال في  
الوحشية والفتك، وفي مذابح دير ياسين والخليل ورام الله وعزة وغيرها من  
مدن فلسطين، وفي جنوب لبنان، ومع الانتفاضة التي بدأت في سبتمبر سنة  
٢٠٠٠م والتي راح ضحيتها آلاف الشهداء والجرحى والمعوقين ممن سقطوا  
من أبناء الشعب الفلسطيني.

#### مقارنة بين الحروب اليهودية والإسلامية:

إن الروح اليهودية هنا لا علاقة لها بالحروب في الإسلام، ولعلنا عندما  
نتبع حروب أنبياء بني إسرائيل - عليهم السلام - من أمثال يشوع و داوود  
وسليمان نعرف كيف أن رجالا من أمثال بن جوريون ، و ننتياهو و شارون  
يتعاملون مع الفلسطينيين بهذه الإبادة الجماعية ، وبهذه الأساليب اللا  
إنسانية ..إنما يتمثلون ذلك الذي جاء في التوراة ويرون أن الحقوق الإنسانية  
محصورة في اليهود وحدهم.

لكن الروح العسكرية الإسلامية تختلف تماما عن هذه الروح التي يبثها  
العهد القديم عبر العصور. حتى انتهت بالبشرية إلى إنتاج أسلحة الدمار

(١) سفر التثنية: الإصحاح (٧-١/٢).

(٢) أ. محمد التونسي: الخطر اليهودي، مرجع سابق (المقدمة).

الشامل والحروب العالمية ( هيروشيما ونجازاكي) التي أتت فيها القنابل الذرية على اليابس والأخضر والطفل والشيخ..

إن رسول الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم (وعلى خطاه مضت الفتوح الإسلامية حتى صلاح الدين الأيوبي) كان يوصي الجيوش بألا يقاتلوا إلا بعد أن يدعوا أعداءهم إلى الإسلام أو إبرام معاهدة سلام وعدم اعتداء، ثم عليهم أن يحموا أنفسهم وهم مستقلون في ذلك، أما إذا أرادوا أن يحميهم المسلمون - كشرط من شروط معاهدة السلام - فإن عليهم أن يدفعوا «الجزية» بدلا من (الدفاع عنهم) ولهم أن يطلبوا في أي وقت إسقاط الجزية والدفاع - بالتالي - عن أنفسهم، فالجزية ليست إلا (بدل تجنيد في الجيش - فدية جنديّة) .. ومن وصايا الرسول الخطيرة التي لا وجود لمثلها في الأعراف والقوانين العسكرية، قوله لمعاذ بن جبل، ولعلي بن أبي طالب - في وصيتين مقاربتين للفظ والمعنى:

«لا تقاتلهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدووكم، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا، ثم أروهم ذلك القتل وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلأن يهدي الله على يدك رجلا واحد خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»<sup>(١)</sup>.

ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم في وصية عامة موجهة لجميع جيوشه: «تآلفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل مدر ووبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم»؟

ويعلق على هذه الوصية الدكتور (علي عبد الواحد وافي) قائلا: إنه بهذه الإجراءات الكريمة وما إليها يدل الإسلام على شدة حرصه على حقن الدماء وإيثار السلم، وينأى بالمسلمين عن جميع مظان الغدر والخيانة وأخذ

(١) المبسوط، الجزء الأول، ص ٣١، نقلا عن (د/علي عبد الواحد وافي: حماية الإسلام للأنفس والأعراض، ص ٤٠، طبعة ٢، ١٤٠٣هـ، عكاظ، السعودية ١٩٨٣م).

الأعداء على غرة، فيقي الناس ويلات الحروب، وما ينجم عنها من نقص في الأنفس والأموال والثمرات، أو يخفف ما استطاع من هذه الويلات<sup>(١)</sup>.

ولقد كان من نتائج تعاليم الإسلام وآدابه في الحروب أنه بينما دفع الغالب والمغلوب في الحريين العالمين (١٩١٤م)، (١٩٣٥م) ثمنا باهظا، فوقع نحو (١٦٧مليوناً) بين قتيل وجريح ميئوس من شفائه، بينما لم يزد كل ضحايا غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وحروبه ضد الشرك واليهود على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عن (٣٨٦) شخصا من الفريقين (المؤمن والكافر) و(الغالب والمغلوب) وذلك خلال ثلاثة عشر عاما، وخلال أكثر من ستين غزوة وسرية...

وهذا باستثناء الخونة خيانة عظمى من الذين قتلوا لخيانتهم للشريعة (للدستور والقانون الإسلامي) من أمثال بني قريظة. (وهذا القتل هو عقوبتهم في كل القوانين الدولية!!)

ولعل أدنى مقارنة بين الطرفين تكشف حقيقة الوحشية الأوربية في الحروب وتكشف الحقيقة الإنسانية للإسلام في حروبه وفي سلمه!!...

ولئن كانت الحضارة الأوربية والمنظمات الدولية قد انتهت إلى تقرير بعض الحقوق الخاصة بالجرحى وموتى الحروب، مع أنها هي التي اخترعت الحروب العالمية.. كما أنها هي التي اخترعت أسلحة الدمار الشامل...

لئن كان الأمر كذلك فإن مما لا شك فيه عندنا أن الروح الإسلامية الحضارية التي أثرت في أوروبا قديما وحديثا، وزرعت فيها أخلاق الفروسية، ونشرت بينها المستشفيات (البيمار ستانات) وكتب الطب، وأخلاق الطبيب، وإنسانيات الطب، كلها قد أثر في التقدم البشري الذي انتهى إلى هذا المستوى الذي ألمعنا إليه.

لقد سبق الإسلام كل القوانين الدولية في حماية كرامة الإنسان، مسالما أو محاربا، وبتأثير من تعاليم الإسلامية استطاعت البشرية أن تصل إلى

(١) انظر علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص ٤١.

تقعيد ( قانوني ونظري!!) لحقوق الموتى والجرحى والمرضى من الأعداء في الحروب - ( ويجب أن يعرف أن كل ما تصل إليه البشرية في هذا المجال الخير يقره الفقه الإسلامي الدولي).

وقد عقدت أخيرا اتفاقية عامة لتحسين حالة جرحى الحرب هي اتفاقية (جنيف المبرمة سنة ١٨٦٤) والمعدلة معاهدة ١٩٠٦ ثم باتفاقية (٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩) وأخيرا باتفاقية (١٢ أغسطس سنة ١٩٤٩).

وقد أقرت هذه الاتفاقية مبدأ حماية الجرحى والمرضى الذين يصابون في ميدان المعركة، وفرضت على قوات الدولة التي تسيطر على ميدان المعركة البحث عنهم وحمايتهم من أي اعتداء أو معاملة سيئة، كما فرضت على الفريقين المتحاربين الاتفاق على وقف القتال الكافي لنقل الجرحى الموجودين في الميدان بين الخطوط - بقدر ما تسمح به الظروف الحربية ولسنا مبالغين إذا عزونا هذا التطور لتعاليم الإسلام ، بل إننا صادقون كل الصدق حينما نقول : إن الإسلام كان أسبق من هذه القوانين من الناحية النظرية ، وكان أصدق - الصدق كله - في الناحية العملية والتطبيقية التي تتقص الحضارة الحديثة .. حضارة الشعارات والنظريات ...

أما الإسلام فهو حضارة القول والفعل: وصدق الله في كتابه الكريم: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٣].

**تأثر الفكر الأوربي باليهودية والعداء الثابت للأخر (المسلم).**

لقد ظل الفكر الأوربي يمشي بعيدا عن الرؤية المنصفة المرنة المتفتحة على الإنسان الآخر ، إلى أن أصبحت (صور الآخر) صورة نمطية يتعامل الغرب بها - بوحشية - مع كل من يختلفون معه سياسيا أو فكريا أو دينيا .. وكل هذا بسبب خضوعه لمصادر الفكر اليهودي الصهيوني.

وقد ورثت هذا التتميط قوافل المستشرقين، وكان عليها تطوير صورة العدو - من خلال الفهم العميق لشخصه والعمل على تحقيق الأهداف المسبقة. ومع ظهور القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الشعور بالتفوق الأوربي

مهيمنا ، بما يتسم به من الواقعية المصلحية (البراغماتية) و (الامبريالية) والأزدراء التام لكل الحضارت الأخرى ، فقد ذهبت أوروبا إلى أن كل مقاومة لهيمنتها تمصل مؤامرة شريرة مستوحاه من روح حاقدة<sup>(١)</sup>.

فالمستشرقون، ورجال السياسة، ورجال الإعلام والاستخبارات يعملون جميعا.. لأهداف مشتركة - هي تثبيت صورة الآخر العدو، ويساعدهم في تحقيق أهدافهم المتحمسون الدينيون الذين يسخرون الموروث الديني والتاريخي لتثبيت صورة الآخر العدو، ولهذا يرى «إدوارد مورتيمر» أن الميراث المسيحي يظل عنصرا رئيسيا في الهوية الأوروبية، بمعنى أن تعريف الآخر (العدو أو الصديق) لا يزال أسيرا لعبارات دينية ، حتى لو جرى التعبير عنه باللغة العلمانية التي تستخدم مصطلحي (ديمقراطية) و(طغيان).. فالصورة المؤطرة والجاهزة تختلف أشكال التعبير عنها، لكنها واحدة، بل إن الميل إلى تثبيت صورة العربي والمسلم ميل مستمر ينحدر إلى الثبات في الكتب والمناهج المدرسية في البلاد الأوروبية والأمريكية. وهي صورة مزمنة للمستشرقين الدور العلمي الأساسي في إبرازها، وهي - كما نرى - صورة تقوم على ضمنية المجابهة العدائية التاريخية، على ثنائية التعارض بين ثقافتين<sup>(٢)</sup>.

وجدير بالذكر أن الاستشراق هو - باختصار - المعرفة التي أنتجها الغرب عن «الشرق» عن شعوبه وثقافته، أو بعبارة أخرى هو «الشرق» كما يراه الأوروبيون، أو كما هو متجسد في الخيال الغربي، ويمكننا أيضا القول: إن الاستشراق هو الشرق كما ينبغي له أن يكون في نظر أوروبا - كعدو ثابت - وليس كما هو كائن بالفعل وفي الواقع<sup>(٣)</sup>.

فالشرق في إطار هذه الصورة (الاستشراقية) استبدادي لا يعرف ولم

(١) مجموعة أبحاث صورة الآخر العربي نظرا ومنظورا إليه - مركز دراسات الوحدة العربية ص ٦١ مقال (فيلهو هارلي) نشر بيروت.

(٢) صورة الآخر العربي: (مرجع سابق)، ص ٣٠، ٣١.

(٣) مجلة العربي العدد ٥٢٩، ١٤٢٣هـ، مقال (أوروبا الاستعمارية كيف رأت الآخر؟) للدكتور عبد العليم محمد، ص ٢٧.

يعرف الديمقراطية أو الشورى، ولم يعرف كيف يحكم نفسه بنفسه، كما أنه يعاني من الدونية في مواجهة التفوق الغربي ومختلف في كل شئ عن الغرب. وهذه النظرية الأوربية الاستعمارية التي تركز على القوة والمعرفة تستهدف تسويق السيطرة على الشرق وتبرير المؤسسة الاستعمارية وممارستها في الواقع. كما قدمها الساسة والمستشرقون الاستخباريون - وهي مقدمة للسيطرة عليهم وفرض الاحتلال والاستعمار، ففي خطاب آرثر جيمس بلفور في ١٣ يونيو عام ١٩١٠، برر احتلال إنجلترا لمصر بمعرفة الإنجليز بمصر وأحوالها وتاريخها وحضارتها، ذلك أن المعرفة في إطار نظرة بلفور هي عبء الانتقال من المحلي إلى العالمي، والخروج من الأول إلى أفق السيطرة الكونية.. ولهذا فهم يريدون تحت مظلة حقوق الملكية الفكرية حرمان العالم من الحرفة، وهذا النمط من العلاقة لا يقتصر فقط على بلفور وإنما يمتد ليشمل رجال الإدارة الاستعمارية، فنظرتهم تتأسس على الاستعلاء والتفوق وتتغلف بمسوح رسالة كونية (عولمية) مهمة الرجل الأبيض في العالم غير الأوربي، رسالة الحضارة الأوربية في العالم، أي فرضه الأوربية أو الأمريكية على العالم<sup>(١)</sup>.

وتضاف أسطورة «التهديد الخارجي» إلى مجموعة العوامل المحركة لتثبيت هذه الصورة للآخر (العدو)، وبالتالي، فلم تعد المناهج العلمية، وأساليب التفاهم والتعارف، أو التجربة الشخصية هي المصادر الأساسية لمعرفة " الآخر " كما كانت في المجتمعات التقليدية. لقد تعددت وسائط هذه المعرفة كما اتسعت سوق بيع الصور والأحكام المسبقة، ومن أكثر هذه الصور مقاومة ورواجا هي - كما ألمعنا - صورة التهديد<sup>(٢)</sup>... حتى ولو كان التهديد المزعوم منسوباً إلى «الآخر» الذي هو أضعف مائة مرة.. من «الأنا» الأوربي والأمريكي!!

(١) مجلة العربي: (مرجع سابق)، ص ٢٨.

(٢) صورة الآخر العربي: (مرجع سابق)، ص ٣٠، ٣١.



ومع أن فرنسا قد احتلت بلادا عربية كثيرة، ومع أن ثورتها التحريرية قامت على شعارات (المساواة والإخاء والحرية)، ومع أنها تركت في الجزائر خلال ثماني سنوات الثورة مليوناً ونصف مليون شهيد قتيل.. إلا أن (العربي) لديها - كذلك - هو العدو الآخر الثبت..!!

ولقد وجد الفرنسيون كما يقول شارفان أستاذ القانون الفرنسي في العربي «العدو الأمثل» بعد أن أحدث غياب الشيوعية خطراً على الإجماع الذي كان قائماً إزاءها.

ومما هياً العربي للعداوة أنه ذو سمات بارزة، علنية وأيسر تمييزاً من غيره، وهو - أيضاً - يجمع بين مواصفات كبش الفداء... إنه يلبي حاجة الفرنسيين إلى العثور على الذات والى فهم مساوئ الأزمة دون عناء، وهناك أزمة مجتمع في فرنسا تحتاج إلى تحميل المهاجر العربي بعض أسبابها.

وما يقوله ( شارفان ) - أستاذ القانون الفرنسي - ينطبق - بدرجات متفاوتة- على كثير من الدول الأوروبية والدائرة في فلكها.. فالآخر «العدو» (العربي) مطلوب لأغراض محلية.. وسياسية.. واقتصادية.. ودينية.. أيضاً.

وهكذا تقف أوروبا منطوية على نفسها، متدثرة (بالأنا) ومتدثرة - بالدرجة نفسها - (بالآخر العدو) الذي يمنحها (وجوده الأسطوري) حركة دائمة، وسعياً لتفوق و الهيمنة. واستغلالاً يعتمد على (شرعية أوروبية عنصرية) لشعوب العالم..

ومن وراء أوروبا ترث أمريكا هذه (الإيديولوجية الأسطورية) التي لم تمر بتجاربها التاريخية.. لكنها - كعنصر في البيت الحضاري الأوربي - تؤمن بأن القيادة قد آلت إليها، وعليها - بدون تفكير متعقل، بل وبضغط من قوى الصهيونية أن تعمل على إثبات وتأكيد أيديولوجية (الأنا) الراض (للآخر العدو) والمتربص دائماً، والعمل على إزالته.. بأعنف ما عرف تاريخ الحضارات من عنف ودموية وخروج على أبسط قواعد الأديان

والقوانين والأخلاق.

■ والسؤال - أخيرا :-

ترى أيهما - الإسلام أو الحضارة الأوربية - أهدى سبيلا..؟..

وأيهما يدعوا للحوار والعدل والتسامح والرحمة؟..

وأيهما يجعل للحروب ومنطق القوة حدودا إنسانية وقواعد أخلاقية؟..

وأيهما يسعى للإبادة وفرض الهيمنة وتثبيت العداء وتقنينه وجعله ديناً،

بل وجعله القاعدة لا الشذوذ؟..

■ والإجابات وردت في ثنايا البحث..والمسلمون والأوروبيون

يعرفونها..لكن الخضوع الأوربي والأمريكي لمصادر الفكر اليهودي. ولمنطق

المادة والمصلحة والدنيوية يقف وراء هذا الظلم الثابت الذي لا نملك معه إلا

أن نقول:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

أ.د/عبد الرحيم عويس

مصر